الفصل الخامس

الأخلاق والعلوم الإنسانية

- **علم الاجتماع . علم العادات والأخلاق.**
- **علم النفس والأخلاق.**
- **علم الأنثروبولوجيا (دراسة الأقوام البشرية).**
- **نقد عام**

الأخلاق الاجتماعية:

ظهرت النظرية الإجتماعية في الأخلاق بحماسة كأحدث نظرية أخلاقية، إذ ظهرت في أوائل القرن العشرين إثر ذيوع أفكار (كونت) الوضعية، التي تدعو إلى توكيد طريقة العلوم التجريبية ورفع العلوم الإنسانية إلى مستوى العلوم الفيزيائية من حيث أن هذه الأخيرة اعتبرت بوصفها المثل الأعلى في دقة البحث وصحة النتائج، وقد قبلت الوضعية طريقة البحث في الأخلاق فنقلها من الأسلوب الفلسفي إلى الأسلوب العلمي، ويبدو أن هذا أمر مرغوب ومستجد فبعد أن كان الفلاسفة النظريون يصفون الأخلاق ويبررونها أو يبرهنون عليها بطرقهم التجريدية والعقلية أصبحت الأخلاق تستمد من الواجب الإجتماعي، وأصبحت القواعد الأخلاقية مرتكزة إلى ضرورة الإجتماع الإنساني وما تتطلبه من التزامات تلزم بها الفرد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى غدا مقبولاً أن تُعنى الأخلاق وتهتم بما هو كائن فعلاً في الحياة اليومية لا بما يجب أن يكون من المثُل أي الاهتمام بما هو قائم فعلاً في المجتمعات البشرية من قواعد وسنن توجه الناس في حياتهم وتحدد لهم تصرفاتهم وأعمالهم. وعلى ذلك انتقل موضوع الأخلاق من الحياة الباطنية للفرد إلى الحياة الظاهرية في المجتمع، وأصبح الإلتزام الخلقي مما

تضعه الجماعة للفرد لا مما يضعه الفرد لنفسه، بدعوى أنه لا يمكن فصل الأخلاق عن الإجتماع، ولأن الأوامر الخلقية لاتتخذ لنفسها من قيمة، اللهم إلا وسط كيان إجتماعي معين، والجماعة هي مصدر الإلزام وهي التي تؤكد أن على الفرد أن يوثق علاقته بالأفراد والهيئات الإجتماعية، وهكذا فإن الهيئة الإجتماعية تضع الأوامر والنواهي فتضغط على الأفراد وتلزمهم بالانصياع لضروراتها بطريقتين: هما الرغبة والرهبة.

يرى (دوركهايم) زعيم المدرسة الإجتماعية الفرنسية في كتابه (التربية الإجتماعية) أن الأوامر والنواهي الإجتماعية كفيلة بتحقيق النظام والإرتباط بين الفرد والمجتمع، وإنها وسيلة لتحرير الفرد لا لخضوعه، لأن هذا الأخيرحينما ينصاع للجماعة يكتسب الإحترام أولاً والمحبة ثانياً.

1- فهو يكسب الإحترام: لأن المجتمع يتبدى بالنسبة للفرد كأمر علوي سابق على الوجود الفردي، الأعلى منه بما يحويه من تراث السلف وتقاليد الكل، وهكذا فالفرد تلميذ المجتمع يتلقى عنه حكمة الماضي ويستمد منه آمال المستقبل، وبالمقابل فالعقل الجمعي أستاذ العقل الفردي يتعهده ويربّيه ويغذيه بسائر العناصر الإنسانية التي ترفع من قيمته، وتجعله يفتخر بأنه يحقق الحضارة التي صارت إليها الجماعة، والمُثل التي تخطتها الأجيال الصاعدة.

2- وهو يكتسب المحبة: لأن انصياع الفرد لأوامر المجتمع يتضمن إعلاء له لا إذلالاً كما يبدو لأول وهلة، وهذا الإنصياع يمثل انسجام الفرد مع الهيئات المختلفة التي ينتمي إليها بإعتباره عضواً نافعاً في الهيئة، وقيمة الفرد لا يحصّلها بنفسه بل بما يحقق من واجباته الإجتماعية، وبمقدرته على أدائها، وقوة شخصية المرء تتناسب مع مقدرته على التعلق بأهداب الجماعة، وعلى الرضى بتحقيق متطلباتها، ومن هنا فالرجل الفذ والناجح

في حياته الخلقية يجد نوعاً من البهجة والرضى قد يبلغ حد التفاني في خدمة الجماعة.

وهكذا يعمل الاحترام والمحبة على زيادة قوة الفرد ومقدرته على ضبط نفسه، والسيطرة على أنانيته، فلا ينصاع إلى فرديته، ولا يخضع لحاجاته وشهواته الحسية وأطماعه المادية.

وعلى ذلك يؤكد (دوركهايم): أن المجتمع سبيل لتحرير الفرد لا لإستعباده، إنه واسطة لتضامن الأفراد والهيئات.

والخلاصة: أن الأخلاق العلمية الاجتماعية لا تختط مثلاً أعلى تصبو إلى تحقيقه ولا تبغي الكمال المطلق لفرد خيالي مجرد عن الزمان والمكان، ولا تبتغي المنفعة الأنانية التي تتعارض مع مصلجة الآخرين، وإنما تبتغي شق السبيل أمام الفرد كي يتضامن مع جماعته بمحبتها واحترامها، إنها ترسم له الصورة التي يقدّم وظائفه في الحياة الإجتماعية باعتباره ينتمي إلى أمة معينة وأسرة معينة بالذات، ويعمل بمهنةٍ خاصةٍ ومع أناس محدودين، فهي تعلمه كيف ينسجم مع أولئك الذين يعيش وإياهم في بيئاتهم المختلفة وأوضاعهم المتباينة، وتقدم لهم القوالب الاجتماعية التي يصب فيها نشاطه وفعاليته.

هذا ولا يكتفي دوركهايم بإنكار قيمة الفرد، بل يثبت وجود عقل جماعي مشترك، وهو يدّعي أن هذا العقل الجماعي مستقل عن عقول الأفراد، وأنه ذو طبيعةٍ خاصةٍ قائمةٍ بذاتها له وجوده الخاص، وتطوره المستقل عن الأفراد.

أما القوالب الاجتماعية فهي التي يصب فيها المجتمع (النشاط الفردي)، وأهم هذه القوالب هي العرف والعادات والتقاليد والذوق والحكم والأمثال والقوانين:

1- **العرف:** وهو مجموع الأفكار والمعتقدات والأساطير، والقصص الشعبية التي تسود في قوم من الأقوام وتنتقل من جيل لآخر.

2- **العادات:** وهي أفعال إرادية في الأصل، تسود شعباً من الشعوب لدى الأفراد والهيئات وتصبح بمثابة قواعد للسلوك، وهي سنن

لها صفة الإلزام والضغط وتتضمن العقاب إذا خالفها البعض، لأنها ترتبط بالحاجات الأساسية لكل مجتمع والعادات دائمة في كل جماعة، ومستقرة وقلما تتغير إلا ببطء، ويسبغ عليها الماضي صفة القداسة، وهكذا تأتي أوامرها من طبيعتها التاريخية، تتوارثها الأجيال عن بعضها، ويظل مفعولها سارياً رغم أنها غير مكتوبة وإذا كتبت تصبح قوانين وضعية.

ومثال العادات: عادات الزواج والتوريث، واقتسام الأرباح وغنائم الحرب في الأمم قبل أن تنظمها القوانين وتسجلها بمواد مرتبة ومبوبة.

3- **التقاليد:** وهي أفعال اعتيادية يقوم بها أفراد هيئة معينة، أو طبقة خاصة دون غيرهم من أفراد الطبقات الأخرى، وبهذا تكون التقاليد نوعاً خاصاً من العادات وذلك على غرار تقاليد الزواج لدى النبلاء في العصور القديمة وتقاليد منح الشهادات التعليمية في العصور الحديثة.

4- **الذوق العام:** فهو بطبيعته لا يدوم طويلاً بل يتحول، ويختلف عما سبقه من ناحيتين: الدوام والذيوع، هو أمر نسبي يتلاءم مع بعض الظروف والمناسبات ويبتدئ عادةً كموجةٍ غامرةٍ تجدد حياة الجماعة ويشيع بين الناس بالتقليد، ولكن ما أن ينتشر بين الناس حتى يصبح مألوفاً وعامّاً فيفقد قوته وميزة الجدة فيه، عن مبتكراته القيمة التي كانت له حين ظهوره فيتوقع الناس ظهور موجة جديدة، وفي مثال على ذلك: تشكيل الثياب وموضات السيدات وما يتعلق بها من أنواع الزينة.

والخلاصة: أن استمرار الذوق العام يتناسب عكساً مع ذيوعه وانتشاره، فهو يعكس العادات التي تتأكد كلما شاعت وران عليها الماضي. إنه يعيش في حاضره فحسب، ولكن قد يعود بعد مدة تطول أو تقصر فيتألق بعد أن خبا ضوؤه ثم يندثر ويموت من جديد.. وهكذا.. دواليك.

5- الحكم والأمثال: وهي الصيغ والعبارات التي تتردد على ألسنة عامة الناس لتدبير أفعالهم وسلوكهم وقد يستعملها صغار الكتّاب وبعض القصّاصين والمتحدثين أو النقّاد الشعبيين في معالجة المعضلات الاجتماعية التي تثور في حقبةٍ من الزمان.

6- القانون: ويراد به بوجه خاص القانون الجزائي، لأنه يمثل الحد الأدنى من الأخلاق لأن الذين يربّيهم القانون إنما يستجيبون للقوة التي تكمن خلفه لا للضمير ولا لغيره.

وملاحظة أخيرة يجدر النظر إليها قبل مناقشة النظرية الاجتماعية ألا وهي: أن كلاً من العرف والعادات والتقاليد إذا كانت تمثل اليوم إرادة الجماعة ووجهة نظرها، فإنها كانت تمثل ذات يوم إرادة رئيس القبيلة الذي كان يفرض آراءه وتصوراته يوم كانت المجتمعات ما تزال في حالة بدائية.

وهناك مدرسة إجتماعية أخرى حاولت أن تطبق المنهج العلمي تطبيقاً أوفى قام بها تلميذا الفيلسوف الإجتماعي (دركهايم) وهما (ليفي برول) - (وألبير بايّيه)، فصنعا ماسميّ [بعلم العادات].

الأخلاق والعلم:

لايوجد تلاقٍ حقيقي بين موضوع الأخلاق وموضوع العلم مع ذلك يمكن القول أن الصلة بين العلم والأخلاق ليست منقطعةً فكل منهما لا يستغني عن الإنتفاع بإختصاص الآخر. إن علم الأخلاق لا يبني نظرته على العمل وحده أو على العاطفة المجردة وحدها بل يقيمها على أساس من العقل، كذلك العالِم فهو لايستغني في أبحاثه عن بعض القواعد الأخلاقية التي تكون هادياً له في بحثه. لكن هذا لايعني أن علم الأخلاق والعلم ينظران نظرةً واحدةً إلى الأمور أو يتفقان في المنهج والإتجاه.

والحقيقة: أن علم الأخلاق يأمر بما ينبغي أن يكون، مثل: لا تكذب، ويطلق أحكاماً وقيماً مثل «الكذب معيب»، أما العلم فيحدد ما

هو كائن، مثل: يغلي الماء في درجة مائة في مستوى سطح البحر. وينطلق في الأحكام التي يقدمها من الواقع.

ولما كانت العلوم جميعاً تُعنى بدراسة ما هو كائن، في حين أن علم الأخلاق يُعنى بدراسة ما يجب أن يكون فإن هذا يجعلنا نلاحظ أن كلمة (علم) الواردة في (علم الأخلاق) ليس المراد منها الدلالة على المعنى الدقيق لكلمة علم، أي المعرفة القائمة على القوانين الثابتة والدقيقة، بل الدلالة على المعنى الواسع لها: أي مجرد المعرفة.

علم الأخلاق وعلم العادات:

يرى (باييّه) أن موضوع علم العادات هو موضوع علم الأخلاق. لكن ما يختلف في الأمر، هو النظرة إليهما: فعلم العادات يدرس الأخلاق في واقعها (أي كما هي) كدراسة (عادات العرب الأخلاقية)، أو (تقاليد الهنود)، في حين أن علم الأخلاق التقليدي يدرسها في وجوبها أي كما ينبغي أن تكون.

ولهذا كان علم العادات علماً وضعياً يدرس الأخلاق كما هي في الواقع، وهذا يعني أن عمله قائم على تتبع المفهومات التي أنشأها أو إرتضاها جمع من الجماعات عن الحياة وتتبع عاداتهم الفردية أو الجماعية، ثم تثبيتها في لائحة وضعيّة، أما الأحكام التي تصدرها بهذا الصدد، فهي أحكام وجود أو أحكام واقع.

وخلافاً لذلك فإن علم الأخلاق هو علم معياري أي: علم يُعنى بما ينبغي أن يكون، غير أن دراسة ما ينبغي أن يكون لا تتنافى مع دراسة ما هو واقع بل تعتمد عليها، ولهذا فهي تبدأ بدراسة سلوك الإنسان في ظروف وجوده الفعلية، ولكنها لا تتوقف عنده، بل تتجاوزه إلى المثل الأعلى، في سبيل إصدار أحكام تقديرية في ضوء هذا المثل الأعلى ندعوها: أحكام قيم. وتظل القيم أكبر من المجتمع فهي تسبقه وتشرع له وأكبر من الأفراد فهي تلذهم وتظل ملزمة لهم ومحببة إليهم وهي آمرة وناهية ولها طابع التقديس.

علم النفس والأخلاق:

قد لا تتوفر في علمين اثنين من الوشائج والروابط والاهتمامات المشتركة والخدمات المتبادلة مثلما تتوفر بين علمي النفس والأخلاق. فكلاهما يدرس الإنسان فيُعنى بسلوكه ومشاعره كما يُعنى بإنفعالاته وأفكاره، وكلاهما يتناول الحياة السوية للبشر كما يتناول إنحرافاتها وهواجسها ووساوسها وصعوباتها. وهناك موضوعات مشتركة بينهما مثل الشعور، والإحساسات والأحكام وكلها تؤكد وجهات النظر القائمة على تقارب العلمين.

ومع ذلك فإن العالم النفسي يتناول الحياة النفسية من حيث أنها تؤلف مجموعةً لظواهر داخلية ذاتية متتابعة يصفها ويصنفها ساعياً للوصول إلى قوانين عامة، أما الباحث الأخلاقي فهو يدرس الحياة النفسية من حيث تجاوبها مع القيم، فيحكم عليها ويحدد مقدار قربها إلى الخير أو إبتعادها عنه.

والذي يتقصى دراسات علم النفس يجد أن هذا العلم الناشئ قد أضفى على الدراسات الأخلاقية الكثير من السعة والدقة، فأغناها ودقق في فرضياتها. ولما كان علم النفس يعتمد على التجارب فإنه تمكّن من تحليل الكثير من الفرضيات وأخذ يحولها من طابعها النظري إلى طابع تجريبي شبه يقيني أو يقيني كامل.

التحليل النفسي عند فرويد:

بدأ فرويد طبيباً مختصاً بالأمراض العصبية فكانت دراساته النفسية الأولى تستهدف العلاج بوصفها طريقة عملية بحتة، ثم نمت دراساته هذه فغدت نظرية متكاملة ترمي إلى تفسير الحياة النفسية بأكملها. عُني فرويد بدراسة اللاشعور، ومضى يلاحظ أن معظم المرضى الذين يشاهدهم يعانون من إضطرابات جنسية، بدا له أن هذه الاضطرابات ذات صلة بظاهرة الكبت، وكان الكبت يتعلق بماضي المريض وخبرات طفولته، فانتهى إلى نظرية مفادها أن النفس البشرية تتأثر في حالتي الصحة والإنحراف بالأمور الآتية: الليبيدو (مبدأ اللذة) ـ اللاشعور (أو الكبت) ـ والطفولة.

والشئ الملحوظ في التحليل النفسي عند فرويد أن ما قدمه هو أدنى إلى الفلسفة (ذات الأفكار الثابتة) منه إلى المنهج الموضوعي فقد كان فرويد:

1- مولعاً بالفرضيات، مبالغاً في التأويلات.

2- أما إيثاره اللاشعور وتفضيله على الشعور فقد كان موضع نقد وإستنكار لدى علماء النفس والمفكرين العقليين.

لقد رأوا أن تفضيله هذا ينعكس على الدراسات الأخلاقية الرصينة إنعكاساً سيئاً، وقد يكون في اتجاهه هذا متأثراً بإهتماماته الأصلية القائمة على مشاهدة المرضى الفاقدين لمشاعرهم.

3- كان إهتمامه بالجنس مثار اعتراض الكثيرين الذين لاحظوا أن الفرويدية تعد فاصلاً بين عهدين: (ما قبل الكبت) و(ما بعده) وبتعبير آخر يلاحظ الكثيرون أنه فتح الباب أمام ما يسمى (بالثورة الجنسية)، ولهذا يواجه فرويد نقداً شديداً بلا هوادة.

4- ثم أن النظرية الفرويدية (وهي أحق بأن تسمى بالفلسفة) كانت أدنى إلى التشاؤم منها إلى العلم والتفاؤل العلمي، فوق أنها تؤدي إلى تعريتها والنيل من الطبيعة البشرية والحط من كثير من قيمها.

يونغ: كان من أتباع فرويد ولكنه اختلف عنه وأسس جماعة علم النفس التحليلي، وكانت نقطة الإختلاف عنه هي القول باللاشعور الجمعي، فهذا اللاشعور يمثل ـ في رأي يونغ ـ الإنسان الأول، إنسان الغابة المتوحش، إن يونغ في نظر الكثيرين أكثر إغراقاً في مناهضة الأخلاق، يقول هؤلاء: إذا كانت الأخلاق نتاج وعي فردي شعوري، فإن يونغ يدفعنا إلى اللاوعي الجماعي، بعيداً عن إدراك الفرد وشعوره بالخير. والمشاهدات تؤكد أن الجماعات التي تؤيد الإتجاه الجمعي أو الكلي Totalitaire تجد عند يونغ الكثير من المنتجعات ومظاهر التأييد والدعم.

آدلر: إختلف مع فرويد إختلافاً بيناً عندما أعلن أن العناصر الرئيسية في نفسية الإنسان هي: عقدة النقص ـ التعويض والشجاعة الاجتماعية ـ العمل.

يقول آدلر: «إن شعورنا المتفتح تجاه الطبيعة، وتأثرنا بجمال البر والبحر وتقدير المعاني التي يوحي بها الشكل والصوت واللون، وما نحس به من الثقة والطمأنينة وسط الطبيعة في الليل الساجي، أو الطبيعة في أوقات العاصفة، كل هذا مما توحيه طهارة الحب ونقاوته، إن الحياة التي تقدّر الجمال و تُعنى به وما يفيده الفن منها والثقافة، هذه الحياة مشتقة في أصولها مما يتصف به الأفراد من شجاعة اجتماعية ورغبة صادقة في العمل النافع».

وواضح أن الاتجاه السائد عند أدلر شديد الدنو من التعاليم الأخلاقية ـ التي نرى أنها تتميز بالرصانة ـ وفعلاً فإن آدلر قمين بالدراسة لاهتمامه بالبنية العقلية الساعية إلى التكامل، والبنية الأخلاقية المتوجهة صوب دعم الشجاعة الاجتماعية والقدرات التعويضية المتفتحة في كل عملٍ نافع.

علم نفس الطفولة:

أفادنا الكثير مما نحتاج إليه في تعليم الأطفال والكبار، وفي تربية المربين وإعدادهم، وفي توجيه الثقافة التربوية الناضجة في الأسرة والمدرسة أما إرشاداته القائمة على ملاحظة أطوار النمو ومراحله فقد أعانت الكثيرين على معرفة كيفية التعامل الأخلاقي والاجتماعي والتربوي مع الأطفال.

علم النفس التربوي:

منحنا بدوره معلومات طيبة في تحديد البرامج المدرسية ومناهج التعليم وخططه، وأعاننا في معرفة متى وكيف نحصل على أفضل مردود أخلاقي وتربوي ناجح، وأبان لنا أن المدرسة للطفل وليس الطفل للمدرسة وهكذا فإنه ساعدنا كي نميز بين الوسيلة والغاية وكي نحسن الرؤية والعمل.

التوجيه النفسي:

وقد قام في الأصل على مبدأ الفروق الفردية وامتياز بعض الناس عن الآخرين، والعيش من أجل معرفة القدرات المميزة لكل فرد، واكتشاف الطرق الأجدى في تفتح الشخصية في مضمار الدراسة والتخصص المهني. وغير خاف على أحد ما لهذا الأمر من أثر خطير في زيادة إنتاج الفرد ومدى تفاهمه مع نفسه ومع الآخرين، فالتوجيه يحرر الفرد من فوضى الاختيار ويجعل العمل والنجاح في العمل أمراً جديراً بالتقدير عند الفرد والجماعة على السواء.

وهذه الخدمات تيسر للأخلاق أن تتحقق كما تدعم الأخلاقيين.

علم الصحة النفسية:

ويمنحنا معرفة (بالسواء) متى وكيف يكون، ومعرفة (بالشذوذ) أيضاً ولكن أهم ما يُعنى به هو السواء، وهو يعيننا كي نحسن الرؤية والتعامل من أجل تحقيق السواء والنجاة من الانحراف. وذلك من أجل تجنب الصراعات والأزمات النفسية العابرة أو الدائمة، وتزويد الأسرة والمدرسة والعمل بأساليب التكيف الناجح وجذوره العقلية والعاطفية والخلقية، من أجل تأمين أسباب الوقاية والعلاج.

% % %

سنجتزئ قسماً من بحثٍ قامت به «مرغريت ميد» في دراستها لبعض القبائل البدائية، تقول في هذا البحث:

«كان ماكدوغال مؤسس المدرسة النزوعية في علم النفس يعد السيطرة غريزة، أو دافعاً فطرياً بين جملة دوافع أخرى، يثيره وجود الفرد مع أفراد أدنى وأضعف، أو وجوده في موقف يشعره بأنه ذو بأس ونفوذ ينزع بالفرد إلى التحكم والتزعم وتوكيد الذات أمام الآخرين».

غير أن البحوث الانثروبولوجية كشفت لـ«مارغريت ميد» أن دافع السيطرة لا أثر له في بعض الشعوب والقبائل البدائية ففي قبيلة آرابش Arabesh التي تقطن غينيا الجديدة تعتبر السيطرة وتوكيد الذات سلوكاً شاذاً إذا بدا من أحد الأفراد.. إنها قبيلة يسودها التعاون والمسالمة والصداقة وإنكار الذات، وهم ينفرون من التسلط والتنافس ويهربون من الزعامة ولا يطيقونها، مما يحمل القبيلة على أن تفرض الزعامة على بعض الأفراد على الرغم منهم عند الحاجة.

وعلى خلاف ما يحدث في الحضارة الغربية (حيث يُشجع الطفل على التسلط والتنافس منذ نعومة أظفاره)، نجد أفراد الآرابش يستهجنونها ولا يشجعونها. فالطفل الأمريكي يُعلَّم من سن مبكرة أن النجاح الاقتصادي للفرد والتفوق على غيره هو السبيل إلى الظفر بمحبة الوالدين.. والأم الأمريكية تشعر بأنها فشلت كأم أن لم يتفوق طفلها على غيره من الأطفال، ثم تأتي المدرسة الأمريكية بعد ذلك والصحافة والإذاعة والتلفزيون في أمريكا فتؤكد هذا الاتجاه وتلح عليه.

دراسة العدوان في قبيلة موندوغومور:

كان فرويد يرى أن العدوان ينشأ من كبت الميول الجنسية وكبحها، لكنه ذهب في نهاية حياته إلى أن العدوان استعداد غريزي

قائم بذاته لدى الإنسان أي إنه مغروز في فطرة ابن آدم حتى ولو لم يَعْتدِ عليه أحد، فالعدوان حاجة فطرية مثل الجوع والعطش.

لكن البحوث الانثروبولوجية فنّدتْ هذا الرأي وأظهرت خطأه، فالعدوان لا يظهر البتة عند أفراد قبيلة آرابش، لكنه يظهر ظهوراً قوياً لدى أفراد قبيلة (موندوغومور) وهي قبيلة مجاورة لقبيلة آرابش وتعيش على صيد الحيوانات وقطع الأشجار، يتسم أفرادها بالعدوان المفرط والارتياب المتبادل، الرجل المثالي فيها هو الرجل الخشن الغليظ العدواني المقاتل، وكذلك المرأة. ولقد وُجد أن الطفل في هذه القبيلة يولد وينشأ في جو عنيف غير آمن، فمتى حملت المرأة كف الزوج عن لقائها، ويثور غضبه من ذلك ولا يكون مستعداً لقبول الطفل. والرضاعة مؤلمة إذ يوضع الطفل في سلة خشنة ولا يعطى الثدي إلا في الحالات القصوى ولفترة قصيرة ولكي يظفر الطفل بقدر كاف من اللبن في الوقت القصير يجب أن يرضع بقوة رضعات سريعة وإلاَّ ضاع نصيبه من اللبن، وإذا شرق الطفل ثارت الأم.. أما عملية الفطام فلا تقل في غلظتها عن الرضاع، إذ يُزاح الطفل عن أمه بعنف ويستعمل معها اللكم والشتم... وهكذا يتفتح شعور الطفل على السلوك الشرس والمواجهة العنيفة منذ نعومة أظفاره.

وتتابع (مرغريت ميد) دراستها للأقوام البدائية فترى في قبيلة تشامبولي (التي تجاور القبيلتين) فينقلب دور الرجل والمرأة ليتماثل مع ما هو معهود في الثقافة الغربية، فالمرأة هنا هي العنصر المسيطر الغالب والمتصرف في شتى الأمور. فهي تقوم بصيد السمك ونسج الشباك وغيرهما من الأعمال الشاقة، أما الرجل فيتعهد شؤون الأطفال وينصرف إلى الاهتمام بالرقص والحفر والنقش.. مما لا تهتم به المرأة هناك. ومع أن النظام الاجتماعي في هذه القبيلة أبوي، ويبيح تعدد الزوجات، وهذا من شأنه أن يغضَّ من شأن

المرأة، إلا أن النساء هن أصحاب الأمر[1] والنهي، وفي هذا تناقض لا تقبله أفكارنا.

وكان كثير من علماء النفس يرون أن مرحلة المراهقة، في كل زمان ومكان مرحلة أزمات نفسية وصراعات ترجع إلى ما يعتري المراهق من تغيرات بيولوجية عنيفة، دون اعتبار لثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه المراهق حتى دلت البحوث الانثروبولوجية الحديثة على أن المراهقة في كثير من الشعوب البدائية ليست مرحلة تأزم حرجة بل هي مرحلة هينة تخلو من الصراعات ومن الأزمات النفسية والجنوح ومن التمرد على الكبار، ويرجع هذا إلى أنهم يسمحون للفرد في سن البلوغ أن يضطلع بأعباء الكبار وواجباتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والتمتع بامتيازاتهم من زواج واشتراك في الحفلات والصيد.

فكأن المراهقة المتأزمة من سمات المجتمعات المتحضرة وحدها، وهي ناتجة عن طريقة تعاملها مع المراهق، إن المراهق عندنا ناضج من الناحية الفيزيولوجية لكننا نعده طفلاً من النواحي الاجتماعية والاقتصادية فنعتبر نشاطه ورغبته في الاستقلال غير مقبولة. فمن الطبيع إذن أن يستجيب المراهق لذلك بالتمرد أو العدوان والانحراف.

% % %

(1) أصول علم النفس: د. أحمد عزت راجح ص514 القاهرة.

يبدو لأول وهلة أن من المفيد والمرغوب فيه أن يدخل العلم اليقيني الثابت بمناهجه ووضوحه إلى ساحة الأخلاق. وأن تكون له المكانة اللائقة فيها. ألم ينجح العلم في مجال المادة والوجود المادي؟.. ألم يحوّل التأملات والمناقشات إلى بضائع معلبة ومنتجات؟...

لقد كان العلم قديماً رهن البحث والاستنتاج فانطلق ونضج حينما عرف طريقه إلى الاستقراء وغدا شيئاً أكثر من البحث النظري.

يبدو أن هذا صحيح لأول وهلة ولكن علينا أن نتبين في هذا الموضع ناحيتين هامتين: **أولاهما** أن علينا أن نميز بين علم تجريبي (كالفيزياء) والعلوم الإنسانية المسلكية (كعلم الاجتماع وعلم النفس والانثروبولوجيا) فموضوع الفيزياء ثابت والظاهرة الفيزيائية يمكن الرجوع إليها في كل حين، وطريقتنا في معالجتها هي التحليل، أما الظاهرة المسلكية (أو السلوكية) فموضوعها ديناميكي متحرك وطريقتنا في معالجتها هي التحليل والمقارنة والاحصاء والتركيب.

الناحية الثانية: لا بد من التمييز بين العلوم المسلكية نفسها والأخلاق. فالعلوم المسلكية علوم واقعية في حين أن الأخلاق معيارية. الأولى تدرس ما هو كائن والثانية تدرس ما يجب أن يكون. وأحكام الأولى تقريرية وأحكام الثانية تقديرية (بالنسبة إلى مثل أعلى) والمعرفة في العلوم المسلكية تساعد على التنبؤ بالمستقبل، أما الأخلاق فهدفها ليس التنبؤ بالمستقبل وإنما صنع هذا المستقبل.

والوقع أن المعرفة وحدها لا تصنع الفضيلة. أما الأخلاق فمهمتها الأساسية أن تُصنع الفضيلة.

إن العلم (أياً كان فيزيائياً أم مسلكياً) حيادي لا يبالي بالقيم.

لقد صنع العلم القطار ولكنه لم يحدد (ولا يستطيع كعلم أن يحدد) من يركبه ويستعمله (الأبرياء) أم (اللصوص) فالعلم يخدم كلا الفئتين.

لنضرب مثلاً حال رجلين أحدهما كريم والآخر ممسك شحيح، إنهما في نظر العلم متكافئان لأن مهمة العلم التطلع إلى الواقعة، أما الأخلاق فلا تتوخى حقيقة الموجود من حيث هو موجود، ولا تتوخى الحقيقة الراهنة بذاتها. وقد نستطيع أن نتصور فعلاً كريماً وطيباً من الناحية الأخلاقية رغم أنه ليس متحققاً في الواقع الراهن، إن فعلاً كهذا يحتفظ بصفته الفضلى وقيمته السامية، ولو تعذر قيامه في أرض الواقع فلو اقتحم شاب لينقذ طفلاً يعد شهماً ولو لم ينجح في انقاذه.

العلم يعتمد التحليل:

والتحليل النفسي عملية فكرية ينكفئ فيها الذهن على ذاته فيتفرع إلى فرعين: الموضوع من جهة، والذات التي تكتشف الموضوع وتحدده بغية تحليله من جهة أخرى، ولا بد من توفر نية في النفس تتخذ التحليل سبيلاً إلى تحقيق أغراضها.

فإذا تساءل إنسان في نفسه قائلاً هل الحقيقة جميلة أم قبيحة، طيبة أم سيئة؟ فإن تساؤله يكون قد خرج عن دائرة الحكم بمعيار التحليل العلمي وصار إلى إخضاع الحقيقة لقيمة بديعية (حيث الجمال أو القبح) أو لقيمة أخلاقية (الإحسان أو الإساءة) أو قيمة دينية (الحلال أو الحرام)، وإذا كان التحليل يستهدف الوصول إلى القانون، فإن الأخلاق تستهدف الوصول إلى المثل الأعلى.

ولعل من الجائز أن ننظر إلى تباين العلم والعمل خلال المنظار المعنوي الذي يحدد الأدنى والأعلى في مجال الفكر، فنجد بهذا المعنى أن العلم ينظر إلى أسفل (حيث تكون الأنا المشخصة) أدنى إلى الطبيعة، وكأن العلم يصنع جغرافية الشعور البشري الداخلي، أما الأخلاق فتتطلع إلى أعلى وتشرئب بعنقها إلى ما يجاوز الشعور

الداخلي القائم فعلاً، وتنشد المثل الأعلى أو تنشد ما ينبغي على الأنا أن تدركه وتحققه.

ولئن امتاز العلم بصفتي الضرورة والعمومية، فإن هذه الميزة العلمية ليست بميزة عند الأخلاق، لأنها تضعف شعور الإنسان بمسؤوليته، وتضعف تمسكه بكرامته كما تسلخ عن التجربة الإنسانية صبوتها أو تطلعها نحو الحرية والروحانية.

وفوق ذلك يستقيم القول إن العلم يتوخى الواحد المحدود ويستهدف غاية متعالية ماثلة في إقرار نظام طبيعي دقيق، فإذا أطلق العلم حكماً، أضمر في حكمه أن الأمر حقيقي، أي متسق داخل منظومة مفهومة طبيعية نفترض تحققها سلفاً، وإن كان المستقبل وحده هو الذي يتيح لنا فرصة إتمام معرفتنا بها.

ولكن الأخلاق لا تتطلع إلى الوحدة بل إلى اللامتناهي (وبخاصة أخلاق الإسلام التي رأينا أن الكِلم الطيب يصعد إلى الله)، (ورأينا أن مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء).

وإذا تبنّينا المثل الذي يطرقه Le Senne قلنا أن شخصاً حيادياً يختار بين خصمين لينحاز إلى أحدهما، فلو جاز أن تكفي المعرفة وحدها لكان في وسع هذا الشخص أن يتصرف تصرف إنسان ماهر، يعرف من أين تؤكل الكتف، فيحسب احتمال فوز أحد الخصمين، فينضم إليه، ولكن هل من الجائز أن يبلغ هذا الحساب مرتبة اليقين؟.. إن ذلك يقتضي أن يغض الطرف الآن عن أثر انحيازه إلى أحد الخصمين في المستقبل من جهة ويلتزم من جهة أخرى أي بغض النظر أيضاً عن واجبه الأخلاقي الماثل في ضرورة الانحياز إلى جانب من يكافح في سبيل قضية عادلة، وقد يكون هذا المكافح هو أضعف الخصمين حالياً، فمن واجب الإنسان الحيادي الأخلاقي أن يعضده ليجعله هو الأقوى. أجل إن الحل الأخير، وهو الحل الأخلاقي لا يمت بصلة إلى الحل الأول، حل التقيد الاجتماعي العلمي، ولا يخفى أن العالم الاجتماعي شأنه شأن

كل عالم ينهج في تفكيره نهجاً مجرداً عاماً إلى حد كبير أو صغير، ومثل هذا التعميم المجرد يعارض الفعل الأخلاقي، وهو فعل فردي مشخص بوجه الإجمال[1].

أضف إلى ما سبق إن علم الاجتماع يُفقِر (الأنا) حين يستولي على النفس وتغدو معرفة المرء بما يجري في ضميره كمعرفة الناظر أو المشاهِد لما يمر أمامه من غير أن يقدر على أن يسهم فيه، وبذا يفقد الإنسان تطلعه إلى المزايا الأخلاقية السامية ويهمل واجبه في العمل على تغذيتها وانمائها. وإذا عرف الفرد أن أفعاله خاضعة لآثار الواقع الاجتماعي الخارجي، زال شعوره بمسؤوليته واكتفى بالمطالبة به بدل الإنتاج الفعلي. وليس من ريب في أن خير الأوضاع الاجتماعية، بل أقلها سوءاً إنما هي الأوضاع التي تمتاز بإخلاص الأفراد لها، وحرصهم على احترامها وتوقيرها وحدبهم اليومي على نماء خصبها، ونحن إذا منعنا عن الأنا (دم الحياة) حكمنا على المجتمع بالموت. ولا بد من الانتباه إلى أن الأفكار الجاهزة والماثلة في المجتمع لا تمثل الحقيقة الصادقة في جميع الأحوال. وكذلك الأمر فإن اتفاق كلمة المجتمع حول ناحية أخلاقية معينة لا يعني بالضرورة اتفاق هذا المجتمع حول الخير والفضيلة. ألا نرى مثلاً أن أمة بأسرها تتجه لتعتنق نزوة قائدها المتهور؟؟[2]. فتصاب كلها بالعدوانية نتيجة اندفاعها بالعدوى صوب العدوان؟؟... إن هذا هو ما كانت تفعله النازية في ألمانيا، وما يصنعه قادة اسرائيل بالاسرائيليين والعرب.

موجز القول: إن النتائج التي يحققها علم الاجتماع لا تلبي مزاعم أنصار هذا العلم في ميدان الأخلاق.

وبالمثل يمكننا أن نقول إن علم النفس ليس أحسن حظاً من علم الاجتماع في ضمان مطالب الأخلاق، فهو في أحسن ظروفه يقدم لنا

---

(1) Le Senne Traité de morale générale P. 505.

(2) {**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**} [غافر: 29].

تحليلاً للانحراف أو السواء، إنه يرسم الماضي ويعد المستقبل امتداداً له (وهذا منهج العلم ولا يمكن اعتباره منهجاً للأخلاق).

والنقد الذي وجهناه إلى علاقة المعرفة الاجتماعية بالعلم الأخلاقي يمكن أن يوجَّه إلى علاقة المعرفة النفسية بالعمل الأخلاقي أيضاً.

ناهيك عن أن بعض تصرفات النفسيين يمكن أن تكون غير أخلاقية فعلاً، وذلك حين يقومون بأعمال ما يسمى بغسل الدماغ، أو بتكوين ايحاءات سالبة تفتقر إلى الخير بل وقد يكون قوامها الشر.

وأياً كان الأمر فإن وجهة النظر العلمية هي التخصص، فالعالم النفسي والاجتماعي والانثروبولوجي كل واحد من هؤلاء إنما يطل على الحقائق من زاويته الخاصة، وبالتالي فهو لا يرى من الحقيقة الكلية إلا ما يسمح به العلم الذي ينتمي إليه. وسيكون نصيبه من الحق جزئياً ولا يواجه إلا «بعض الحقيقة».

وشيء أخير كبير الأهمية: إن عالم النفس الاجتماعي (أو عالم الاجتماع أحياناً) يأتينا باحصاءات عن عدد المدمنين على الخمر مثلاً أو على الهيروين هو كذا أو كذا... إذا أتانا بعد حين باحصاءات تشير إلى تفاقم وزيادة عدد المدمنين (أو زيادة الهدر الاجتماعي والاقتصادي بسبب الإدمان) أو تشير إلى أن فئات من المواطنين الأصغر سناً أو المواطنات الأكثر ضعفاً قد بُليت بالإدمان... فماذا عساه يفعل علم النفس إزاء تورطات من هذا النوع؟ وكيف يكون السبيل إلى خدمة من يحتاجون إلى هذه الخدمة في تحريرهم من الإدمان؟.

وفي مقابل ذلك نحن نرى (والأمر يقع في كل مكان فوق الأرض) أن الذين يندبون أنفسهم لأعمال البطولة الأخلاقية فيتعرضون إلى أخطار حقيقية في معاشرتهم المجرمين أو المدمنين أو فئات المنحرفين الجنسيين وما تنتشر في أوساطهم أمراض وأوبئة عضوية أو سلوكية ونفسية... هؤلاء الذين يقومون بخدمات لهذه الفئات من الناس لا يثابرون ويتابعون إلا حين يكونون من الممتازين

في دينهم ومن أصحاب التقوى والأخلاق وهذا هو ما يشهده المحايدون من العلماء وما يمكن أن يتثبت منه القاصي والداني.

أما الأبحاث الانثروبولوجية فلا تصنع إلا أن تعرض علينا (ومن وجهة نظرها الخاصة) صوراً لأناس أو قبائل أو أناس غير متورطين، ينتمون إلى البشرية، ويفتقرون أحياناً إلى النصيحة والمعونة، لكن هذا العلم لا يصنع شيئاً بوصفه علماً ومعرفة فهو محايد بطبعه ورسالته العلمية.

إلا أن توفر رجل (أو هيئة) هداه الله فمضى يعمل بإيمانه العميق وتلبية نداء الله في فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون من عباد الله المفلحين، ولكنه ليس بالضرورة من العلماء الانثروبولوجيين وقد لا يكون على علم بعلم الاجتماع أو علم النفس فهو من الناجحين وإنما له قيمة كبرى رغم جهله بهذه العلوم.

% % %